الإسلام والرسالة العالميّة

عبد الرحمٰن السالمي

يعلن القرآن الكريم في المئات من الآيات أنه يحمل إلى عالم الإنسان رسالة عامةً وضروريّة لعيشه على هذه الأرض، وأنه ﷻ خصَّ بني البشر بهذه الرسالة بحكم أنه الخالق، وأنه لذلك رحيمٌ بخلقه، ويريد سعادتهم وهناءهم. فهو يخاطبهم تارةً بـ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، وطوراً بـ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾. أما المضامين الأساسية ـ والتي تُظهر ضرورتها ـ فهي: التعارف، والكلمة السواء، والاستخلاف، والرحمة، والخير العام.

ولذلك فإنه عندما يقرر القرآن الكريم أنَّ الدين عند الله الإسلام، وأنه من يبتغ غير الإسلام دِيناً فلن يُقبل منه؛ إنما يقصد هذه الثوابت والمسَلَّمات في الاستخلاف والتعارف والعناية والرحمة والخير. وهو الأمر الذي نبَّه إليه سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

ولنلاحظ اقتران الحنفية بإبراهيم في عدة آياتٍ، من مثل: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ [البقرة: 135] ومن مثل:

﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [آل عمران: 95]. ومن مثل: ﴿ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [الأنعام: 161] ومن مثل: ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾ [النحل: 123].

وقد اختلف المفسّرون في المعنى الدقيق لهذا اللفظ؛ أهو من أصلٍ عربي أم سرياني؟ والذين قالوا: إنه لفظٌ عربي عدُّوه من ألفاظ الأضداد؛ أي أنه بحسب السياق (في علم الوجوه والنظائر) إما أن يعني: المعوجّ أو الخارج، وإما أن يعني المستقيم. ولكنّ علماء الساميات ذهبوا إلى أن معناه: الأصلُ أو الأصليّ أو الفطري. وفي سورة [البيّنة: 5] ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾، وفي سورة [الحج: 31] ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾، وفي سورة [الروم: 30] تصريحٌ بمسألة الفطرة: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾.

ونعرف من السيرة النبويّة أنه كانت في مكّة قبل مبعث رسول الله صلواتُ الله وسلامُهُ عليه مجموعةٌ أبرزُ أعضائها زيد بن عمرو بن نُفيل قد سمُّوا الحنفاء، وكانوا مستقلين في اعتقاداتهم؛ إذ إنهم أبَوا البقاء على دين قريش، ولم يدخلوا في النصرانيّة ولا اليهوديّة، وكانوا يبحثون عن الدين الصحيح: دين إبراهيم. وفي السيرة أن رسول الله ﷺ قبل البعثة رأى زيد بن عمرو بن نُفيل فأعجبه سمته؛ لكنه توفي قبل مبعث رسول الله.

هنالك ربطٌ قرآني إذن بين الإبراهيميّة والحنيفيّة السمحاء ـ بحسب الحديث النبوي ـ والفطرة والإسلام، أو إعطاء هذه المفاهيم الثلاثة اسم الإسلام، بمعنى: إسلام الوجه لله: ﴿ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان: 22] وفي سورة [النساء: 125] ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا ﴾؛ ولذلك فإنّ الجامع الإبراهيمي هو الجامعُ الديني الأول أو الواحد أو دين الفطرة. ومن هنا أتى إنكار القرآن الكريم أن يكونَ إبراهيم يهوديّاً أو نصرانياً؛ لأنّ اليهود كانوا ينتسبون إلى إبراهيم نسبة الدم، أما المسيحيون فمن جهة نسبة السيدة مريم من ناحية، ومن جهة

تأليههم المسيح بحيث يكون الأنبياءُ جميعاً عبيداً له من ناحية أخرى. ولذا فقد خالط الشركُ النسبين. ولا مخرج من هذا الانحراف والتحريف إلا بالكلمة السواء والعودة إلى الإبراهيميّة الأولى: إبراهيميّة الفطرة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64]، فمن هم الإبراهيميون إذن؟ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 68].

عندما يدعو القرآن إذن الناس ـ ومنهم أهل الكتاب ـ إلى الإسلام،؛ فإن تلك لا تكون دعوة إلى طائفةٍ معينة أو مجموعةٍ خاصة؛ وإنما إلى دين الفطرة المنزّه عن الشرك والمحاباة والعصبيّة الإثنيّة والعقديّة، وهو الأمر الذي ناضل من أجل إحقاقه إبراهيم والذين اتبعوه ومحمدٌ رسول الله، والمؤمنون معه ممن أسلموا وجههم لله. ومن يبتغ غير إسلام الفطرة فلن يُقبل منه لهذا المعنى أيضاً.

ولأن اليهود والنصارى والآخرين الذين ذكرهم القرآن في الآيات الثلاث: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 62، والمائدة: 69، والحج: 17] عندهم أثارةٌ من الإبراهيميّة؛ فإنّ القرآن والمسلمين عاملوهم معاملة خاصةً واحتكموا في ذلك إلى إعلان الكلمة السواء (الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح)، دون التسميات التي سموا أنفسهم بها؛ لأن العبرة بالمضامين وليست العبرة بالعناوين. ويبقى الأمر كذلك إلى اليوم وفي المستقبل، فمن اعتصم بالثوابت في الدين والأخلاق والتعامل، يكون علينا نحن الشهداء على الناس أن نتعامل معه بمقتضى التعارف والمعروف والتشارك.

ولنعُدْ إلى الأصول: إن إسلام الوجه لله يعني لكل مسلم ما ذكرناه من قبل في بداية هذه الكلمة: التشارك في مسؤوليات الاستخلاف بالتعارف

والمعروف والرحمة والقسـط وصنع السـلام والخير العـام. وهي المعاني والأمور والقِيَم التي استقرأها علماء أصول الفقه من القرآن وصحيح السُّنَّة وصريحها، وهي الضروريـات الخمس: حق النفس أو الحيـاة، وحق العقل، وحق الدين، وحق النسـل، وحق المِلك، وقد قال الشاطبي (ـ790هـ): إنها «مراعاة في كل مِلّة»، وإذا كان الأصوليون قد خاطبوا بها المسلمين بوصفها مقتضـى كتابهم الموحى وسُـنَّة نبيهـم المبعوث رحمـةً للعالميـن، ودعوهم للالتزام بها ـ فإنها بالأمس واليوم والمستقبل يجب أن تبقى خطاب المسلمين إلى العالـم ومعه، وهو خطابٌ يلقى اسـتجابة بقدر ما يُثْبت المسـلمون أنهم ملتزمون به، وقد يقول قائل: لكن المسـلمين في إعلانـات مفكريهم ونُخَبهم سـمّوا ذلك الخطاب إعلاناً إسـلامياً لحقوق الإنسـان، وأرادوا بذلك ملاقاة الإعـلان العالمي لحقوق الإنسـان، وما أجدى ذلك كثيـراً؛ فهنالك ثلاث إجابات ممكنة: **الأولى**: ما نصحَنا به القرآن الكريم في نهاية إعلان الكلمة السواء: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. وهذا يعني أنّ هذا هو إسلامُ الفطرة الذي تعبدَنا الله به، وليس من حقنا الخروج عليه وإلا خرجنا من ديننا: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 120].

والثانية ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140].

والاجابة **الثالثة** ضرورات المراجعة والتصحيح وتغيير الفكر والسلوك؛ فصحيـحٌ أنّ الظلـم والبغـي وقعـا علينـا، لكنّ الإنسـان خطّـاءٌ، ونحن ـ المسلمين ـ من بني البشر؛ فنحن نخاف من العالم؛ لكننا أيضاً نخيفه. وينبغي الخـروج من الأمريـن؛ لأن الحق حتـى لو كان معنـا؛ فإنه يكون الواجب أن نستحقه. إن الدين عند الله الإسلام؛ لأنه دين الفطرة.

ومن هنا تأتي الرسالةُ العالمية التي دعانا سبحانه وتعالى للإيمان بها والدعوة إليها التزاماً واستحقاقاً.